واجبات المربى

للاستاذ حامد عبد القادر

أستاذ التربية وعلم النفس بكلية أصول الدين

لست الآن بصدد الوعظ والارشاد، أو الاصلاح الدينى أو الاجتماعى: فلهذا رجال اختصوا بها؛ ولكنى أقف موقف المربى، فعلى أن أبين مايجب على المربى عمله كى يقوم بالأمر الذى ألقى على عاتقه خير قيام.

ولست أقصد بالمربى المدرس فى المدرسة فقط، بل أريد به كل شخص مسؤول عهد إليه بتربية النشء، وعلى الأخص الوالدين.

وأهم ما يجب على المربين مراعاته بالنسبة لقوانين الوراثة :—

أولا : أن ينتهزوا كل فرصة ممكنة لتعليم النشء هذه القوانين — فمن الواجب على الاباء أن يعلموا أبناءهم قواعد الوراثة بالطرق التى يرونها ملائمة لهم حينما يبلغون السن الكافية؛ وعلى الأمهات أن يعلمن بناتهن هذه القواعد فى الأوقات المناسبة، وبالطرق المنتجة.

ولما كانت عقول كثير من رجالنا ونسائنا لم تنضج بعد؛ أو لم تساعدهم التربية الماضية على تعرف تلك القوانين، صار من الواجب على المعلمين والمعلمات أن يأخذوا على عاتقهم القيام بهذه المهمة.

وليس الغرض من ذلك أن نضيف العلم بوظائف أعضاء التناسل وبأمراضها وبقوانين الوراثة إلى منهج الدراسة الغاص بالمواد؛ ولكننا نريد أن يبدأ بالكلام فى هذه الموضوعات عند الفرص المناسبة، وبالطرق الملائمة، كما سبق، وهذا عمل يمكن للمؤدبين المخلصين القيام به.

فعلى عميد الأسرة فى البيت، ومؤدبى التلامذة فى المدرسة، أن يلقوا على رجال المستقبل وأمهاته من المعلومات التناسلية ما يساعدهم على تنظيم شؤونهم الزوجية، ويهديهم إلى تحسين النوع الانسانى فى المستقبل.

لندع الحياء جانباً، فهذا أمر من الأمور الحيوية التى يضر فيها الحياء، ولا ينشأ عنه إلا مشاكل اجتماعية وأخطاء قد لا يمكن ملافاتها، ولنأخذ أبناءنا بهذه التعاليم الحيوية، ولنؤدب بناتنا على الأخص هذا الأدب، ولنعلمهن الحقيقة التى لا امراء فيها، والتى يمكن تصديقها بفطرتهن، تلك

هي ألا سعادة في الحياة تضارع سعادة المرأة التي ترى أبناءها وبناتها متمتعين بالسعادة، عائشين عيشة قوامها الصحة الكاملة، وأساسها الأخلاق القويمة، ومن أهم الوسائل الموصلة إلى هذه السعادة: العلم بالشؤون الزوجية الوراثية.

هذا ما يجب بالنسبة للنشء، أما ما يجب بالنسبة للنساء والرجال البالغين المتزوجين منهم وغير المتزوجين، فهو:

أولاً: إنارة عقولهم وتزويدهم بالمعلومات الضرورية في هذه المسائل ـ التي نحن بصددها ـ بالطرق المختلفة المناسبة لهم: كإلقاء المحاضرات الخاصة، ونشر الكتب النافعة، وإنشاء مراكز طبية للاستشارة.

ثانياً: أن يبذلوا قصارى جهدهم في تشجيع الصفات الوراثية القوية للوصول بقوتها إلى أقصى حد ممكن.

كلنا يعرف أننا متفاوتون في الملكات: فنا من عنده استعداد فني، ومنا من له ميل طبعي نحو العلم، وفينا من ترتاح نفسه إلى العمليات، وفينا من يحب البحث في النظريات؛ فمن غير المعقول، بل من العبث، أن نرغم من عنده ميل فطري واستعداد ذاتي لتعلم العلوم على أن يحول مجرى حياته فيوجد في نفسه ميلا للفنون؛ كذلك لا ينبغي لنا أن نرغم الفنان على أن يكون عالماً، بل الواجب أن نشجع كلا على السير في طريقه، والوصول إلى الغاية التي أرادتها له طبيعته، فربما يصبح من المهرة البارعين، والأشخاص البارزين في عالمه الخاص، وإننا إن أردناه على غير ذلك، فربما يكون نصيبه الفشل وخيبة الأمل، ويكون نصيب المجتمع الحرمان من الانتفاع بمواهبه في الطريق التي عنده استعداد فطري لسلوكها.

وإذا علمنا أن إمكان تربية الملكات كلها في شخص واحد بنسبة واحدة، من المسائل الخلافية التي لم يتفق عليها علماء التربية، تبين لنا أنه ربما يكون من العبث أن نحاول أن نجعل الناشىء من أبنائنا ماهراً في كل شيء بنسبة واحدة، فإن في ذلك قضاء على ملكته الخاصة، وحجراً على مميزاته الفردية، ومكونات شخصيته التي تجعله شخصاً ممتازاً عن غيره من الأشخاص في ناحية ما.

ولا نعني بذلك أن نهمل نقط الضعف الوراثية في الناشىء، ولكن الغرض أن تكون عنايتنا موجهة ـ على الأخص ـ نحو النقط القوية، وإن كنا في الوقت نفسه نعني بالنقط الضعيفة فنقومها بدون مغالاة ولا إكراه، بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى، على حسب ما تسمح به الظروف.

ثالثاً: ألا يتسرعوا في الحكم، فلا ينبغي لهم أن يحكموا على من تظهر عليه علائم النجابة، بأنه مبرأ من صفات النقص، وعلى من ترى عليه أمارات النقص أنه خال من صفات حسنة، بل الواجب أن يعرفوا أنه لا يخلو العنصر الرشيد من عيب كامن في نفسه، مهما خفي عنا، وأن العناصر السيئة لا تعدم صفات حسنة، وإن عزبت عن ملاحظاتنا.

أما صفات النقص المفروض وجودها في العناصر الجيدة، فلا داعي للبحث عنها إذا لم تظهر؛

وأما الصفات الحسنة التى لا تخلو منها العناصر السيئة، فلا بد من البحث عنها بكل الوسائل الممكنة، فإذا ظهر على ابنـك أو على تلميذك الغباوة العامة؛ فلا تيأس من أن تجده ذكياً ماهراً فى ناحية ما؛ وإذا تراءى لك أن تلميذك ضعيف فى جميع المواد الدراسيـة ، فاعز ذلك لسبب أو أسباب ، فابحث عن جميع الأسباب التى تظنها مسؤولة عن هذا الضعف ؛ فإذا عثرت على السبب الذى يعزى إليه ذلك الضعف، فاجتهد فى إزالته، وأنا أؤكد لك أن هذا الذى تراه غبياً اليوم يصبح فى الغد ذكيا ولو بعض الذكاء .

وإنا نعلم أن كثيراً من الأغبياء فى الظاهر؛ أذكياء فى أنفسهم، وإنما تنقصهم الثقة بالنفس، أو الراحة العقلية، أو يعوزهم بعض التشجيع؛ وقد يرجع السبب فى غباوتهم إلى البيئة التى يتلقون فيها الدروس، أو البيئة التى يسكنونها، أو إلى ضعف فى الصحة، أو عدم ملاءمة المواد التى يدرسونها لاستعدادهم الفكرى، فاسع فى إزالة ما تراه من هذه الموانع بقدر ما يمكنك؛ وأورد تلاميذك على جميع المناهل؛ فربما يستعذبون النهل من أحدها .

وبالجملة حاول أن توقظ ما عساه أن يكون نائماً من ملكات تلميذك، وكما أن إيقاظ النائم يحتاج إلى شىء من الحكمة والرفق والملاطفة واللين، ومعرفة ما يميل إليه النائم وما لا يميل إليه، وما يتأثر به وما لا يتأثر، فكذلك يحتاج المربى الذى عليه أن يوقظ النائم من استعدادات تلميذه إلى شىء كثير من الحزم والرفق؛ كى لا تتشابه عليه الأمور فيضل سواء السبيل .

رابعاً: أن يدرسوا من يربون دراسة تامة ؛ فكما أن من يريد إدارة آلة من الآلات كما يجب، ينبغى له أن يعرف أجزاءها ويحيط بمحتوياتها علماً، كذلك يجب على من يريد إدارة الآلة الإنسانية الكثيرة الأجزاء المتعددة الأجهزة أن يعرفها حق المعرفة، فالمربى الجيد لابد أن يكون على علم تام بمن يربى؛ وذلك لا يكون إلا بدراسته ودراسة طبائعه وميوله؛ فهو كالطبيب الذى يفحص المريض أولا، ويشخص الداء ثم يصف الدواء؛ وليس الطفل – كما يقول البعض – كالصحيفة البيضاء التى تكتب عليها ما تريد، ولا كالحجر الأملس الذى تنقش عليه ما تود، ولا كالصلصال المرن الذى يمكنك أن تجعل منه أى شكل يتراءى لك وتصوره كيفما تشاء؛ ولكنه جسم حى؛ وكائن معقد التركيب يأتى إلى المدرسة، بل يأتى إلى هذا الوجود وقد زودته الوراثة بكثير من الميول والغرائز والمواهب، وليس هناك من شخصين متساويين تمام المساواة فى هذه الأمور حتى ولا التوءمان .

فعلى المربى الكامل: أن يدرس كل هذه ويعرفها معرفة تامة، ثم يعامل كل شخص على حسب طبيعته؛ ولا يكون كالفخارى الذى يصور الطين بصورة واحدة لوضعه فى قالب واحد، وليس للتربية أن تجمع النشء الذين ينتمون إلى أصول مختلفة وبيوتات تكاد تكون متباينـة فى الأمور الوراثية فى صعيد واحد، وتنتظر منهم أن يتلقوا ما يلقى عليهم بنسبة واحدة، وإنما تتل

المربى، كمثل ضارب النقود الذى يفرق بين الذهب والفضة، وبين المعدن والنحاس، فيصنع من كل، النقد الذى يلائمه، فلا يصنع من الذهب ريالات، ولا من الفضة جنيهات ذهبية: فانه لو فعل ذلك لحسبه الناس مجنوناً، ولما عهدوا إليه بمثل هذا العمل الذى لا يحسنه .

فعلى المربى إذن: ألا يعامل كل من عهد إليه بتربيتهم معاملة واحدة، وألا يطبق عليهم كلهم قانوناً واحداً جافاً، لا حياة فيه ولا مرونة، وعليه أن يشخص الداء ثم يصف الدواء فلكل داء دواء.

بيد أن مرض النفس قد يستعصى على طبيب النفوس، وهو المربى، فيصبح المتربى مشكلة من المشاكل، أو لغزاً من الألغاز التى يصعب حلها؛ ومع ذلك لا يصح للمربى حتى فى هذه الحالة أن يقف خائر العزيمة يقلب كفيه على ما أنفق من الوقت بدون جدوى؛ بل عليه أن ينتقل خطوة أخرى، تلك هى دراسة الأسرة التى نشأ منها المتربى، وعلى الأخص أبويه، فان أحوال الوالدين وصفاتهما الوراثية قد تنير الطريق أمام المربى فيمكنه أن يكشف ما غم عليه من أحوال المتربى؛ فما الولد إلا صورة مصغرة من آبائه بحكم الوراثة .

ولذا قد يضطر المربى لدراسة الطائفة أو الشعب أو الجنس الذى ينتمى إليه الفرد فى البلاد التى تمتزج فيها الشعوب بعضها ببعض، ويحصل فيما بينها التصاهر؛ فاذا عرف المربى ميول تلميذه معرفة جيدة، وكان على بينة من مميزات الأسرة والبيئة اللتين نشأ فيهما، وعلم تمام العلم خصائص الجنس الذى ينتمى إليه، فانه يكون من السهل عليه أن يبدأ عمله ويؤسسه على أساس متين لا يتطرق إليه الوهن .

ومن ذلك كله يتبين لك تفوق الطريقة الانفرادية فى التربية على الطريقة الجمعية: إذ باتباع الأولى يتسنى للمربى أن يدرس طبائع تلاميذه الذين يكون عددهم بالطبع محدوداً، ويمكن أن يعامل كلا بما يراه مناسباً لطبيعته وميوله .

أما فى الطريقة الجمعية: فان ذلك يصبح متعذراً، لكثرة عدد التلاميذ وتفاوتهم فى الاستعدادات، وصعوبة دراسة أحوالهم كلهم ، وقلة الفائدة من اتباع طريقة واحدة فى تربيتهم؛ ولذا يقترح بعض المربين على من يدرس لمجموعة من التلاميذ، أن يلقى الدرس بطرق مختلفة، ويسلك فيه مسالك متعددة؛ فمن لا يستفيد من طريقة يستفيد من أخرى، ومن لا يفهم تعبيراً قد يفهم تعبيراً آخر؛ وفى ذلك من الصعوبة ومن ضياع الوقت على بعض التلاميذ ما فيه.

خامساً : أن يعنوا بشؤون البنت عناية خاصة .

إننا أثناء بحثنا لم نرد بذكر التلميذ قصر العناية على الذكور: ولكن أردنا بذلك ما يشمل التلميذة أيضاً ، بل إننا نذهب أبعد من ذلك فنقول : إن من أوجب الواجبات أن نعنى بشأن البنت عناية خاصة ـ لا سيما فى بلادنا المصرية ، فانها بالاضافة إلى كونها أحد الأصلين اللذين تنتقل نصف صفاتهما الخلقية والخلقية إلى الطفل بالوراثة ـ تعتبر الشخصية المسؤولة مباشرة عن الجنين، وعن حياة الطفل الأولى .

ولما لها من المنزلة الكبرى والمكانة العليا فى عالم التربية، كان لها من الحقوق فى التربية أكثر مما لأخيها، فانها لن تكون أما كاملة قادرة على تنشئة أولادها تنشئة كاملة إلا إذا أعدت لذلك العمل إعداداً تاماً .

وهذا الاعداد يطلب أمرين: أحدهما هو صحتها الجسمية والعقلية كما سبق، وثانيهما تزويدها بالمعلومات الكافية اللازمة للمحافظة على صحة الطفل والقيام بشؤونه حق القيام، لا بعد الميلاد فقط، ولكن قبل الولادة أيضاً .

ويؤخذ من ذلك أننا لا نذهب فى تربية البنت مذهب من يسوونها بالولد من جميع الوجوه تقريباً ؛ بل إننا نقول إنه من الواجب أن نسلك بالبنت والولد مسلكا طبيعياً، ونسير بهما سيراً ملائماً لتكوينهما الفطرى .

فالله تعالى خلق الرجل ليكون رجلا، والمرأة لتكون امرأة، وأراد أن يكون عمل كل منهما فى الحياة مكملا لعمل الآخر لا مساويا له؛ وإذا أردنا للمرأة على أن تخرج عن دائرتها التى حددتها لها فطرتها، فان أحد أمرين واقع لا محالة: فاما أن ينقلب نظام المجتمع انقلاباً ليس من مصلحة النوع الانسانى ولا من سعادته فى شىء؛ وإما أن تتغلب طبيعة المرأة عليها فترجع إلى رشدها.

وإننا نرى الأمرين واقعين فى البلاد المتمدينة، حيث أخذت المرأة تتعدى على حقوق الرجل وتزاحمه فى معارك الحياة، وتترك معركتها الخاصة بها .

وبهذه المناسبة يقول مرب أمريكى كبير: « إنى مع عدم تعرضى لبحث تلك المشكلة التى قتلها الناس بحثاً فى كل زمان ومكان، ألا وهى مشكلة منزلة المرأة فى المجتمع، لا أرى مانعا من التصريح برأيى فى هذه المسألة بكل بساطة فأقول :

« إن المرأة يجب أن تربى تربية تكفل سعادتها وتضمن سعادة زوجها فى آن واحد، فيجب أن تعد نفسها للقيام بمهمة خاصة، لا للقيام بمهام عامة، فتعد نفسها للبيت والمدرسة لا لمنبر الوعظ، ولا لمنصة القضاء، ومن الواجب أن تكون تربيتها على نسق تربية أخيها؛ لكن فى النظام والطرق على العموم، لا فى النماذج والطرق الخاصة ؛ حيث يجب مراعاة طبيعة المرأة الخاصة ووظيفتها فى الحياة القاصرة عليها»

«ومن أهم ما يجب عليها معرفته أمران هما: التدبير المنزلى، وواجبات الأمومة، وهذا ما أظنه جارياً على فطرة المرأة؛ وهذه هى المبادىء التى سيكون لها الفوز والنصر المؤزر، عاجلا أو آجلا، وحينا يعلن انتصارها النهائى، وتحتل المرأة مركزها الجدير بها فى المجتمع، وفى المدرسة وفى البيت، تصبح إذن الركن الركين، والعماد الوحيد الذى يعتمد عليه فى تحسين أحوال النوع، والانتفاع بقوانين الوراثة إلى أقصى حد ممكن »

«وستعلم المرأة حينئذ أن هذه هى وظيفتها الحيوية فى المجتمع، وهى الوظيفة التى توقف

عليها سعادتها الكاملة : مهما تظاهرت بأنهـا ترى سعادتها فى غيرها من الوظائف، ومهما ادعت أنها قائمة بحياتها حين تقوم بأعمال هى إلى أعمال الرجل أقرب وإليه أنسب »

هذه حقائق لا يكاد يشك فى صحتهـا من له إلمام بأحوال المجتمعات التى تمنح فيها الحرية للمرأة بلا قيد ولا شرط، فتجد من هذه الحرية ذريعة إلى الاستقلال الاقتصادى والاستغناء عن الزوج، فيترتب على ذلك: انهيار نظام الأسرة من أساسه، وقلة النسل، وكثرة العمال العاطلين من الرجال؛ وفى آخر الأمر نرى طبيعة المرأة تتغلب عليها فتهيم على وجهها، وترجع إلى رشدها؛ ولكن بعد أن يفوت الوقت المناسب، فتضطر إلى إرضاء طبيعتها بطرق غير مشروعة .

وما أشد حاجتنا إلى الانتفاع بمثل هذه النصائح التى يلقيها علينا علماء التربية فى البلاد الأوربية وغيرها من الممالك المتمدينة، فإنهم لم يصلوا إلى هذه النتائج إلا بعد التجارب والبحث الفنيين؛ وإذا كانت هـذه التجربة (أى تجربة تربية البنت) على نسق تربية الولد لم تفلح تماماً فى البلاد الأجنبية التى ضربت فى الحضارة بسهم، فما بالنا نتمسك بأذيال ذلك النظام الذى لم يرض به واضعوه، ولم يطمئن إليه أصحابه؛ وما لنا نترك تقاليدنا الاجتماعية، ونتجاهل طبيعة بلادنا ومميزات شعبنا، ونحاول أن نقلد أقواماً لا يمتون إلينا بصلة ، ولا تجمعنا بهم رابطة ؛ ولماذا نغض الطرف عن المسائل الأساسية، ونعلق أهمية كبرى على الأمور الكمالية التى لا يصح أن نفكر فيها إلا بعد تقويم البنت، وتحسين أحوال المعيشة المنزلية التى وصلت فى بلادنا إلى حالة لا يصح السكوت عليها؟

إننا لا نريد من بناتنا أن يكن: مهندسات، ولا قاضيات، ولا محاميات، ولا عالمات بالكيمياء، والطبيعة، والتاريخ، والجغرافيا، حتى ولا موظفات فى مصالح الحكومة، فلدينا من الرجال من هم أكثر عدداً من هذه الوظائف كثرة فاحشة .

ولكننا نريد منهن أن يكن ربات بيوت وأمهـات بمعنى الكلمة، والبنت لكى تعد نفسها لأن تكون ربة بيت وأماً كاملة، يجب عليها أن تتعلم أشياء عدة قد تقضى فى تعلمها سنى شبابها، بل وحياتها كلها إذا أرادت، فلا تجد وقتاً كافيا لتلك الأمور الكمالية الزائدة عن الحاجة .

أليس من الواجب أن يتعلم بناتنا: تدبير الصحة، وعلم وظائف الأعضاء، وعلوم النفس، والتربية، وتدبير المنزل، والموسيقى، بدلا من أن يتوغلن فى تعلم التاريخ والجغرافيا والكيمياء والطبيعة ؟

وهل من الحزم أن نرسل بناتنا إلى الخارج ليتخصصن فى التاريخ أو الجغرافيا أو الكيمياء أو الطبيعة، ونحن أحوج ما نكون إلى مربيات قديرات ملمات بشؤون التربية من جميع أطرافها؟

إنى لا أريد أن يغلق الباب فى وجه النابغات منهن، فأحرم عليهن التخصص فى مادة قد يكون لدى بعضهن استعداد كبير لها؛ ولكنى أرى أن المجتمع المصرى أحوج فى الوقت الحاضر إلى مهات متعلمات منه إلى رياضيات أو مؤرخات؛ ولا أنكر أن الأمة الراقية لا بد أن يكون فيها النابغون والنابغات فى جميع العلوم والفنون؛ ولكنى فى الوقت نفسه مقتنع بأنه من العبث بل من الحمق أن نعنى بالكماليات قبل أن نعنى بالضروريات .

حامد عبد القادر